التحول في هوية المكان بضاحية المعادي -العوامل الحاكمة

هالة سعد مكاوي

كلية التخطيط العمراني والإقليمي
جامعة القاهرة

ملخص البحث

هوية المكان هي سماته المميزة النابعة من قيمته وتاريخه وخصوصيته التي تتعدى البعد البصري الملموس سواء العمراني أو الطبيعي، إلى تفاعل السكان بخصائصهم وأنماط معيشتهم المختلفة معه، و"روح المكان" التي يفرزها هذا التفاعل. وهكذا فهي محصلة عوامل متعددة مرتبطة بالسكان ومتخذي القرار والمعماريين والمخططين ونظم الإدارة والتحكم. وهوية المكان تمثل هدف ضروري لتحقيق جودة البيئة العمرانية واستدامتها، لأنها تدعم شعور السكان بالانتماء للمكان الذي يعيشون فيه، واهتمامهم به ومسئوليتهم عنه. وهوية المكان تشهد عمليات تطور وتحول مع الزمن، كانعكاس للتغيرات الاجتماعية الثقافية والإدارية والتشريعية بالمنطقة، والتي تعكس بدورها التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الثقافية في المجتمع ككل. وهذا البحث يتناول هوية المكان في المعادي، وهي ضاحية لها هوية مميزة شهدت تحولا كبيراً خاصة خلال العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين والقرن الحالي. وذلك بهدف صياغة مدخل للحفاظ على ما تبقى من أبعاد هذه الهوية واستعادة ما يمكن من الأبعاد التي اندثرت. ويتم هذا من خلال تحليل أبعاد التحول في الهوية والعوامل المختلفة الحاكمة له منذ نشأة الضاحية وحتى الآن. ويتم تقسيم هذه الفترة إلى ثلاثة مراحل رئيسية بناءاً على التغيرات السياسية والاقتصادية التي شهدتها مصر. تمتد الفترة الأولى منذ سنة ١٩٠٥ حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ وانتهاء الاحتلال البريطاني لمصر، تليها مرحلة تطبيق النظام الاشتراكي وسيطرة الحكومة على القطاع الخاص خلال الخمسينيات والستينيات، وأخيراً مرحلة التحول نحو النظام الاقتصادي الرأسمالي (سياسة الانفتاح الاقتصادي) منذ منتصف السبعينيات. هذا بالإضافة إلى مرحلة ما بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ وما اتسمت به من ضعف الرقابة والتحكم. وقد تم تصنيف أبرز العوامل المؤدية إلى التحول في هوية العمران بالمعادي إلى التحولات الاجتماعية الثقافية، والتحول في نظم الإدارة والتحكم.

تقديم

هوية المكان مصطلح يستخدم منذ أواخر السبعينيات للدلالة على نمط مركب من القيم والمشاعر والتفضيلات والسلوكيات المرتبطة بالمكان (Proshansky,1978). فهو يعبر عن سمات المكان المميزة التي تؤدى إلى تميزه وتفرده، والتي تنبع من قيمته وتاريخه وخصوصيته العمرانية والطبيعية، وتفاعل السكان بخصائصهم وأنماط معيشتهم المختلفة معه، والمعاني التي يعطوها له كنتيجة لهذا التفاعل وللعلاقات مع السكان الآخرين Kaymaz, (2013). لذلك تمثل هوية المكان هدف ضروري لتحقيق جودة البيئة العمرانية واستدامتها، لما لها من تأثير ملموس على سلوك السكان وراحتهم، حيث أنها تدعم ارتباطهم الوجداني بالمنطقة التي يعيشون فيها وشعورهم بالانت٤ماء إليها ومسئوليتهم عنها.

وهكذا فإن هوية المكان لها أبعاد متعددة بيئية واجتماعية واقتصادية وسياسية، وهي محصلة للتفاعل بين عوامل متعددة، بعضها داخلي مرتبط بالسكان ومتخذي القرار والمعماريين والمخططين ونظم الإدارة والتشريعات المنظمة للعمران، وبعضها خارجي مثل تأثيرات العولمة (Bentley,1999). وهي تقاس بقدرة الأفراد على إدراك مكان ما على أنه مميز عن غيره. وهذا الإدراك يختلف باختلاف الخبرات والتجارب الشخصية، والخلفيات الثقافية للأفراد التي تدفع إلى اختيارات معينة تنعكس على تشكيل العوالم العمرانية وتحديد هوياتها Agnew). (et al., 1984 وعناصر هوية المكان تشمل النسيج العمراني بمكوناته المختلفة، وخصائص المباني مثل الطابع المعماري ومدى تنوعه والارتفاعات ومواد البناء والتشطيبات والألوان. كما تشمل العناصر الطبيعية المختلفة وخصائصها وعلاقاتها مع المباني، وكذلك نوعيات الأنشطة وكثافاتها وأساليب القيام بها والذي يرتبط بالتركيب الاجتماعي للسكان وأنماط معيشتهم (Oktay, 2006).

وهكذا فإن هناك شبه إجماع على أن هوية المكان لها أبعاد تتعدى البعد البصري الملموس سواءاً العمراني أو الطبيعي، وأنها تتبلور مع الزمن بتفاعل السكان مع المكان الذي يلعب دور أساسي في تشكيلها (Bentley, 1999). وهكذا فإنها محصلة لكل من الهوية الاجتماعية والهوية العمرانية، حيث يفرز تركيب الخصائص العمرانية والطبيعية والاجتماعية معا ما يطلق عليه "روح المكان" (Dovey et al, nd).

وتشهد هوية المكان عمليات تطور وتغيير مع الزمن، وإن كانت عناصرها تتغير بسرعات متباينة وفقا لمدى تفاعلها مع المؤثرات المختلفة. والتحول في هوية المكان عملية يتم فيه ظهور أنماط جديدة، واختفاء أنماط مميزة، كانعكاس للتغيرات الثقافية والاجتماعية والتشريعية والإدارية. فهوية المكان يتم حمايتها، أو تعديلها وإعادة صياغتها من خلال التفاعلات الاجتماعية الثقافية المختلفة (Alpay, 2006) . كما أن هوية المكان قد تتأثر ببعض العوامل الخارجية مثل العولمة وما يرتبط بها من تدفقات ثقافية مغايرة (Tomlinson, nd). ويتباين مدى تأثير العولمة من مكان لآخر وفقا للظروف الداخلية ومدى أصالة الثقافة المحلية، مما يؤثر على طبيعة التفاعلات بين ما هو محلى وما هو وافد، وعلى مدى التوازن بين القيم التقليدية والقيم المستحدثة الوافدة (Nylund, 2000).

والبحث يستهدف صياغة مدخل لاستعادة والحفاظ على ما يمكن من أبعاد الهوية المميزة للمعادي، وهي ضاحية سكنية مميزة شهدت تحول كبير في هويتها خاصة خلال العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين والقرن الحالي. ويتم ذلك من خلال تحليل أبعاد التحول في هوية الضاحية، وارتباطه بالأحداث السياسية والاقتصادية الهامة التي شهدتها مصر خلال القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين، وانعكاساتها على التركيب الاجتماعي والنظام الإداري بالضاحية. وقد تم اختيار المعادي لما اتسمت به من هوية شديدة التميز، كما أنها شهدت تحولات كبيرة في هذه الهوية منذ نشأتها سنة ١٩٠٥ حتى الآن. وقد تم تقسيم هذه الفترة إلى ثلاثة مراحل رئيسية بناءا على التغيرات السياسية والاقتصادية التي شهدتها مصر وانعكاساتها على الضاحية. الفترة الأولى تمتد منذ نشأتها سنة ١٩٠٥ حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ وانتهاء الاحتلال البريطاني لمصر، تليها مرحلة تطبيق النظام الاشتراكي وسيطرة الحكومة على القطاع الخاص خلال الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، ثم مرحلة التحول نحو النظام الاقتصادي الرأسمالي (سياسة الانفتاح الاقتصادي) منذ منتصف السبعينيات. هذا بالإضافة لمرحلة الانفلات الأمني والأخلاقي وضعف الرقابة والتحكم منذ ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١. وقد تم تصنيف أبرز العوامل المؤدية إلى التحول في هوية المكان بالمعادي إلى التحولات الاجتماعية الثقافية، والتحول في نظم الإدارة والتحكم.

١ هوية المكان بضاحية المعادي

المعادي ضاحية جنوبية للقاهرة. وقد أطلق عليها " المعادي" وهي كلمة تعنى "المراكب" نظرا لأن الضاحية الواقعة على الضفة الشرقية لنهر النيل كانت نقطة عبور القوافل القادمة من الجزيرة العربية قاصدة الضفة الغربية للنيل في الجيزة، وصعيد مصر (شكل ١). وهي تتميز بوجود محمية وادى دجلة الطبيعية شرقا Brebbia et al., 2010). وقد كان إنشاء خط السكة الحديد إلى مدينة حلوان ماراً بحوض البساتين سنة ١٨٨٨، أول خطوة ساهمت في نشأة المعادي. كما كان لإنشاء طريق السيارات من المدابغ إلى الضاحية، وإنشاء محطة مترو المعادي سنة ١٩٠٩، دور هام في تطورها (شكل ٢).

شكل (١) الواجهة النيلية لضاحية المعادي -منتصف القرن العشرين

وفى سنة ١٩٠٥، أسست شركة الدلتا للأراضي والاستثمار، وهي شركة مساهمة معظم أعضاء مجلس إدارتها من الإنجليز. وهكذا قامت الشركة بتخطيط ضاحية المعادي وفقا لأسس تخطيط المدن الإنجليزية، ووضعت لها اشتراطات بنائية تفصيلية. وكما توضح الخريطة (شكل ٢)، كانت الطرق الرئيسية مشعة من الميدان الرئيسي (ميدان محطة المترو)، مؤدية الى ميادين فرعية خضراء تشع منها بدورها طرق فرعية، علاوة على شبكة من الطرق المتعامدة الممتدة حتى أطراف الضاحية. وتم تقسيم الضاحية الى بلوكات متساوية في المساحة تبلغ مساحة كل منها ربع فدان. (Browne, 1994)

شكل (٢) مخطط ضاحية المعادي ١٩٢٥

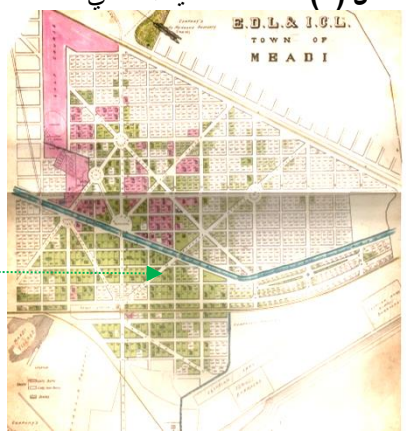

وجاء العمران الأول للضاحية وفقا لكراسة الاشتراطات البنائية، بنسبة إشغال منخفضة لا تتعدى ٥٠ %، بحيث أصبحت الحدائق المحيطة بالفيلات، والزهور والأشجار المزروعة في الميادين وعلى الأرصفة وعلى جانبي ترعة الخشاب المخترقة للضاحية من السمات الأساسية المميزة لهويتها. وعلى الرغم من أن الارتفاع الأقصى المسموح به كان ١٥ متر، إلا أن المباني لم يزيد ارتفاعها عن دورين (نحو ٦ متر). كما جاءت ألوان الحوائط الخارجية والأسوار متجانسة بلون حيادي، وكذلك كانت ألوان النوافذ والأبواب (أخضر أو أحمر أو حيادي) وفقا لما هو محدد في كراسة الاشتراطات. وكان أقصى ارتفاع للأسوار الخارجية مترين ولم يزيد ارتفاع الجزء السفلى المبنى، إن وجد، عن نصف متر. وانحصرت المحلات الصغيرة والمحدودة العدد على الجانب الغربي لطريق فؤاد الأول المار بمحاذاة الحد الشرقي لخط السكة الحديد، والذي أطلق عليه شارع ٩ فيما بعد. كما تم تحديد أنواع الأشجار فاستخدمت أشجار اللهب (flame trees)، والبوينكاندز (poincandas) ودقن الباشا (lebbeks) لإظلال الشوارع، وكانت الأخيرة من السمات المميزة للضاحية. كما تم زراعة الجازورينا على الحدود لصد الرياح والرمال، وأشجار الصمغ (eucalyptus) الأسترالية على ضفتي ترعة الخشاب لطرد الحشرات الطائرة. كما تميزت المعادي أيضا في هذا الوقت بحدائق المانجو والجوافة (Raafat,1995) (شكل ٣).

الأشجار المميزة لضاحية المعادي **شكل (٣)**

وخلال السنوات الأولى لنشأة المعادي كانت شوارعها غير ممهدة، وبنمو الضاحية تم تدبيش الطرق الرئيسية. وكانت الشوارع لها ميول ومصارف للتخلص من مياه الأمطار. وقد أطلق على الشوارع الرئيسية أسماء مؤسسي الضاحية وكانت كلها أسماء أجنبية. وفى ١٩٠٨، تم استكمال أول سبعة فيلات صممها معماريون أوروبيون، وكانت مبنية من الحجر وذات أسقف مداميك مائلة وفقا للنمط الإنجليزي السائد في هذا الوقت. وكذلك فقد استمرت الأنماط المعمارية الأوروبية (art deco- neoclassic- neocolonial- Mediterranean) وغيرها هي السائدة لفترة (شكل٤). وكانت الكباري الخشبية الثلاث المارة فوق ترعة الخشاب من العلامات المميزة لهوية المعادي (شكل ٥). وفى سنة ١٩٢١ تم إفتتاح نادى المعادي الرياضي بإدارة إنجليزية، وكان به ملعب جولف كبير وبحيرة جميلة وحدائق شاسعة للمانجو والجوافة (شكل ٦). وتلا ذلك إنشاء الكنيسة الإنجيلية سنة ١٩٣٠، ثم المدرسة الإنجليزية سنة ١٩٣٢.

شكل (٤) المساكن الأولى في ضاحية المعادي

شكل (٥) ترعة الخشاب والكباري الخشبية - من السمات المميزة للمعادي

شكل (٦) نادى المعادي -١٩٢١

وبحلول عام ١٩٢٥، تزايد الطلب على السكن بالمعادي. ومن ثم قامت الشركة ببناء عدد جديد من الفيلات تم فيها أيضا الالتزام بالارتفاع المحدد في كراسة الاشتراطات. وكان بعضها من الطوب الأحمر، بالإضافة إلى بعض البيوت الخشبية (anglo -Indian bungalows)، ولم تبنى أي عمارة سكنية حتى أوائل الثلاثينيات. وبتزايد أعداد السكان المصريين، تم تكوين اتحاد لسكان المعادي المصريين، قام بمخاطبة الحكومة للمطالبة بإنشاء مدارس عربية، وتم افتتاح أولها سنة ١٩٣٧، ثم أنشئت المدرسة الأمريكية سنة ١٩٤٧. وفى هذه الفترة، بدأ امتداد المعادي في منطقة دجلة (٣٠٠ فدان) شرقا وفقا لكراسة شروط جديدة تم الالتزام فيها بنفس الارتفاع (١٥م)، ثم في قرية معادى الخبيرى لمتوسطي الدخل لأول مرة. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، أنشئ نادى اليخت مطلا على نهر النيل.

ومنذ أوائل السبعينيات، توالت الأحداث السياسية والاقتصادية والتغيرات الاجتماعية التي انعكست على هوية ضاحية المعادي التي انتهى بها الحال إلى صورة مغايرة تماما للهوية الأصلية. فقد توارت تدريجيا الشخصية الحدائقية الجميلة والهادئة، المخصصة لسكنى المثقفين والفئات الاجتماعية العليا، والتي تمتع سكانها بالسير وركوب الدراجات على الأرصفة المليئة بالزهور المميزة للطرق المختلفة، مستمعين إلى أصوات البيانو الصادرة من الفيلات. فقد ردمت ترعة الخشاب، واختفت الأنشطة المرتبطة بها من رحلات واحتفالات للسكان على الضفتين وركوب المراكب الصغيرة، وهدمت الكباري الخشبية المارة فوقها. كما اقتلعت بعض الأشجار المميزة للمعادي سواء على جانبي الترعة أو في بعض الحدائق والميادين. وظهرت الكتل الخرسانية المرتفعة بدلا من العديد من الفيلات التي تم هدمها، ولم تسلم المباني التراثية من الهدم والتعديات (شكل ٧). كما زاد البناء العشوائي خاصة على الأراضي الزراعية والعزب المتاخمة للضاحية، وقد ساعد على ذلك تفشى الفساد الإداري وضعف التحكم في العمران (شكل ٨).

كما اتسمت هذه المرحلة بظهور استعمالات وأنشطة دخيلة، حيث بدأ انتشار المطاعم والمحلات التجارية الضخمة بعضها في العمارات السكنية، كما أنشئت السينمات والمستشفيات والقمر الصناعي (شكل ٩). وبالتالي زاد الزحام وانتهكت الأتوبيسات وسيارات الميكروباص شوارع المعادي لأول مرة بعد أن غزت الطبقات الاجتماعية الوسطى والمنخفضة الضاحية. حتى نادى المعادي لم يسلم من التغيير حيث ردمت البحيرة المميزة له، وتم تحويل ملاعب الجولف وحدائق المانجو والجوافة إلى عمارات سكنية مرتفعة، وتم تغيير السور المزروع إلى سور مبنى. وبعد قدوم السفير الإسرائيلي إلى مصر وإقامته في قلب ضاحية المعادي بعد إبرام معاهدة السلام، شهدت شوارع المعادي لأول مرة الحواجز الأمنية. وزادت هذه الحواجز حول قسم الشرطة بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ (شكل ١٠).

وقد كان لشركة المعادي للتنمية والتعمير دور في غياب الهوية الأصلية للضاحية منذ أواخر السبعينيات، حيث بدأت في إقامة نماذج سكنية متكررة في مناطق متميزة مثل منطقة دجلة وفى المعادي الجديدة، مما أفقد الضاحية الطابع المعماري المميز لمبانيها. وكذلك شركة زهراء المعادي للاستثمار والتعمير التي أنشأت مدينة زهراء المعادي وهي منطقة سكنية متكاملة تضم خدمات إدارية وتجارية في الامتداد الشرقي للمعادي ويربطها بها طريق القطامية -العين السخنة. كما أدى هذا التوسع إلى تضخم مساحة الضاحية وفقدانها أحد العوامل الأساسية في تكوين هويتها الأصلية وهو المساحة المحدودة. وقد دفع هذا، بالإضافة للعوامل السابقة، العديد من قدامى السكان إلى الانتقال للإقامة في التجمعات المغلقة بالقاهرة الجديدة بحثا عن الهوية الأصلية للمعادي.

شكل (٧) ظهور الكتل الخرسانية المرتفعة منذ السبعينيات

شكل (٨) البناء العشوائي منذ السبعينيات

شكل (٩) زحف استعمالات جديدة -مرحلة السبعينيات

شكل (١٠) الحواجز الأمنية في بعض الشوارع - مرحلة السبعينيات

وقد شهد القرن الواحد والعشرون تفاقم هذه المظاهر نتيجة للارتفاع الشديد في أسعار الأراضي، وتفاقم مشكلة الإسكان بالقاهرة ككل، وكذلك تفشى الفساد الإداري وضعف التحكم في العمران. كما شهد ظهور أنماط معمارية ومواد بناء جديدة مثل واجهات الزجاج الملون (شكل ١١). وكذلك بدأ انتشار اللوحات الإعلانية في الشوارع والحدائق بالميادين، والتي تزايدت في العدد والأحجام تدريجيا، وكذلك اللافتات غير المتناسقة لعيادات الأطباء والمحلات التجارية على واجهات المباني (شكل ١٢).

شكل (١١) بعض الأنماط المعمارية المستحدثة منذ أواخر السبعينيات

شكل (١٢) زحف لوحات الإعلانات واللافتات

وبقيام ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، وما تلاها من انفلات أمنى وأخلاقي من جهة، وضعف في الرقابة والتحكم من جهة أخرى، زادت التعديات سواءا في نوعيات الاستعمالات أو في الالتزام بالاشتراطات البنائية، وكذلك التعديات على الأراضي المملوكة للدولة. وأدت الأوضاع الأمنية إلى اختفاء معظم الأسوار النباتية أو زيادة ارتفاعاتها، وحلت محلها الأسوار المبنية والحديدية (شكل ١٣). كما استبدلت معظم الأبواب الخشبية الأصلية ببوابات حديدية. ويوضح (شكل ١٤) حالة معبرة عما تشهده الضاحية، حيث حافظ أحد السكان القدامى على البوابة الخشبية القديمة أمام البوابة الحديدية المستحدثة. كما سادت الفوضى المرورية العديد من الشوارع والميادين، حيث احتلت سيارات الميكرو باص بعضها، وظهر ال"توك توك" في بعضها الآخر وسط ذهول قدامى سكان الضاحية الباقون بها (شكل ١٥). علاوة على ذلك، تفشت مشكلة الزحف العشوائي لبعض الأنشطة في الشوارع والفراغات السكنية. فظهرت لأول مرة الأسواق العشوائية في بعض شوارع المعادي التي كانت تمثل عنصرا هاما في صياغة هويتها الأولى مثل شارع ٩ (فؤاد الأول سابقا) الشارع الرئيسي في الضاحية، والذي تأثر كذلك بمرور الكوبري الخرساني المستحدث فوق ميدانه الرئيسي (ميدان المحطة) (شكل ١٦).

شكل (١٣) الأسوار المبنية والحديدية التي حلت مكان الأسوار النباتية

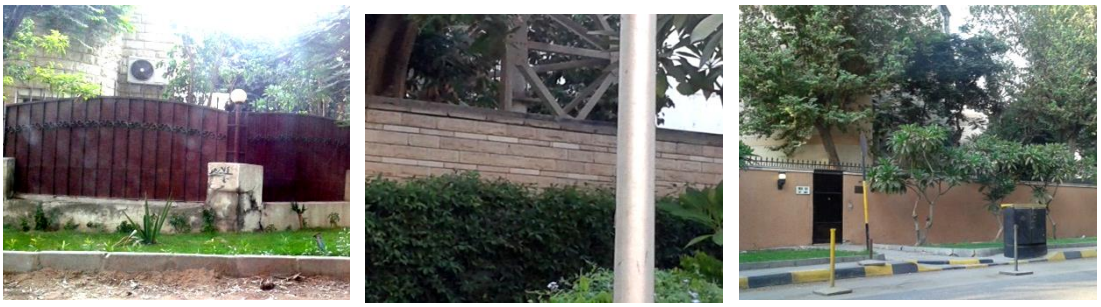

شكل (١٤) البوابات الحديدية بدلا من البوابات الخشبية الأصلية (أ) أو خلفها (ب)

شكل (١٥) التحول في الحركة في شوارع المعادي

شكل (١٦) التحول في الشارع الرئيسي بالضاحية (شارع ٩ – فؤاد الأول سابقا)

٢ العوامل الحاكمة لهوية المعادي منذ نشأتها

لم يكن سكان المعادي الأوائل يتوقعون أن الجمال والهدوء والنظام السائد في ضاحيتهم الحدائقية سوف تعصف به رياح التدمير التدريجي. فالواقع الاجتماعي للضاحية عند نشأتها، والذي قام على خليط من الجنسيات والثقافات المتنوعة، جعلها شديدة الحساسية لأي تغير سياسي أو اقتصادي (Raafat,1995). وقد شهدت مصر العديد من الأحداث السياسية والاقتصادية المؤثرة خلال تلك الحقبة، والتي يمكن تقسيمها إلى ثلاثة مراحل مميزة، تمتد الأولى منذ بداية القرن العشرين حتى أوائل الخمسينيات، أثناء الاحتلال الإنجليزي لمصر ذو التأثير المباشر على الضاحية، بالإضافة الى حدثين آخرين هامين وهما الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ -١٩١٩) والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ -١٩٤٥)، وما ترتب عليهما من تغيرات اجتماعية بها. أما المرحلة الثانية فهي تبدأ منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وما ارتبط بها من قوانين اقتصادية. فقد كان لتطبيق النظام الاشتراكي وتأميم القطاع الخاص انعكاس واضح على المعادي، حيث أدى الى هجرة عدد كبير من رجال الأعمال والصفوة من المقيمين بالمعادي نتيجة لتراجع أحوالهم الاقتصادية، تاركين وراءهم فرص لاقتناء المساكن لفئات اجتماعية أخرى. كما كان لانتهاء الاحتلال الإنجليزي ثم العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ تأثير كبير على هويتها الاجتماعية. ثم شهدت مرحلة السبعينيات أحد أقوى المؤثرات الاقتصادية وهو التحول السريع نحو النظام الاقتصادي الرأسمالي، فيما سمى بسياسة الانفتاح الاقتصادي وما ارتبط به من تغيرات في سوق الأراضي والعقارات أدت الى هدم الفيلات والبناء في الحدائق دون الالتزام بكراسة الاشتراطات، خاصة في ظل الفساد الإداري الذي تفاقم في هذه المرحلة (Raafat,1995). كما شهدت هذه المرحلة امتداد كبير للضاحية في "المعادي الجديدة"، لم يتبع فيه أي من الاشتراطات البنائية الأصلية. هذا بالإضافة للسنوات الثلاث الأخيرة بعد قيام ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، وما اتسمت به من انفلات أمنى وأخلاقي، وغياب الرقابة وضعف التحكم.

وهكذا فإنه يمكن تصنيف أبرز العوامل المؤدية إلى التحول في هوية العمران بالمعادي إلى تحولات اجتماعية ثقافية، وتحول في نظم الإدارة والتحكم.

١/٢ التحولات الاجتماعية والثقافية وتأثيرها على هوية المعادى

تميزت المعادي في مراحلها الأولى بتركيب اجتماعي متعدد الثقافات. فمنذ نشـــأتها وحتى بداية الحرب العالمية الأولى، كان معظم الســكان من البريطانيين، من كبار موظفي الحكومة المصــرية والضــباط المتقاعدين الذين وفدوا إلى مصـــر ســـنة ١٨٨٢، ومعظمهم لهم أصـــول في الطبقة العاملة الإنجليزية، بالإضـــافة الى بعض الإسكتلنديين. وأثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٩)، أقيمت في المعادي بعض الثكنات العسكرية لعدة بلاد (أستراليا -نيوزيلاندا -جنوب إفريقيا-الهند). وبعد انتهاء الحرب، وفد بعض السويسريين والألمان العاملين في قطاع الأعمال للإقامة بالضـــاحية. وبحلول عام ١٩٣٠، زاد تنوع مجتمع المعادي حيث انضـــم له بعض اليونانيين والإيطاليين والسوريين، وبعض المصـريين من الفئات الاجتماعية العليا وأفراد الأسـرة الحاكمة. كما وفد إلى المعادي عدد كبير من اليهود مالكي أسهم الشركات الكبرى والمحلات ومديري البنوك الذين تركزوا في منطقة أطلق عليها حي اليهود، أضـــافوا فيها أنماط معمارية جديدة. وخلال الحرب العالمية الثانية، وفد إلى المعادي عدد كبير من النيوزيلانديين.

وبقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، شهدت المعادي موجه جديدة من التحول في التركيب السكاني حيث انتهت حقبة السكان الإنجليز والنيوزيلانديين وأفراد الأسرة الحاكمة، وحل محلهم أمريكيين من العاملين بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. ومنذ ذلك الحين أصبح المعماريون العاملون بالمعادي من المصريين (Raafat, 1995). وبعد العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦، رحل من المعادي من تبقي من الإنجليز والفرنسيين واليهود حاملي جوازات سفر هاتين الدولتين، وحل محلهم كبار الضباط المصريين. وقد شهدت هذه المرحلة تمصير أسماء الشوارع والمدارس. كما شهدت حقبة تطبيق النظام الاشتراكي سيطرة الحكومة على عدد كبير من الفيلات والأراضي الفضاء، وتم تحويل عدد كبير منها إلى بنوك وهيئات حكومية، كما تم إحلال بعضها بعمارات سكنية. وكذلك بدأ زحف فئات جديدة للإقامة بالمعادي نتيجة لتوفر المساكن بأسعار مناسبة (Raafat,1995).

ومنذ تبنى سياسة الانفتاح الاقتصادي في أوائل السبعينيات، وما ارتبط بها من زحف طبقة الأغنياء الجدد من المصريين إلى المعادي، بدأت هذه الطبقة الجديدة في إعادة تشكيل الضاحية لتلائم أسلوب معيشتها وذوقها وأولوياتها، مما أدى إلى التواري التدريجي لروح مجتمع المعادي الأصلية، حيث شهدت هذه الحقبة بدء ظهور العمارات الخرسانية الضخمة وانتشار المحلات التجارية والمطاعم. تلا ذلك ظهور استعمالات جديدة كالمولات التجارية والسينمات، وتغير الطابع المعماري المميز للضاحية في مرحلة التسعينيات. ويوضح شكل (١٧) بعض مظاهر التحول في التركيب الاجتماعي للمعادي، كما يوضح شكل (١٨) مظاهر التحول في هوية المعادي وارتباطها بالعوامل الحاكمة الاجتماعية الثقافية والتي تأتى بدورها كانعكاس للتغيرات السياسية والاقتصادية التي شهدتها مصر منذ نشأة الضاحية.

شكل (١٧) التحول في التركيب الاجتماعي للمعادي

شكل (١٨-أ) مظاهر التحول في هوية المعادي وارتباطها بالعوامل الاجتماعية الثقافية-المرحلة الأولى لنشأة الضاحية

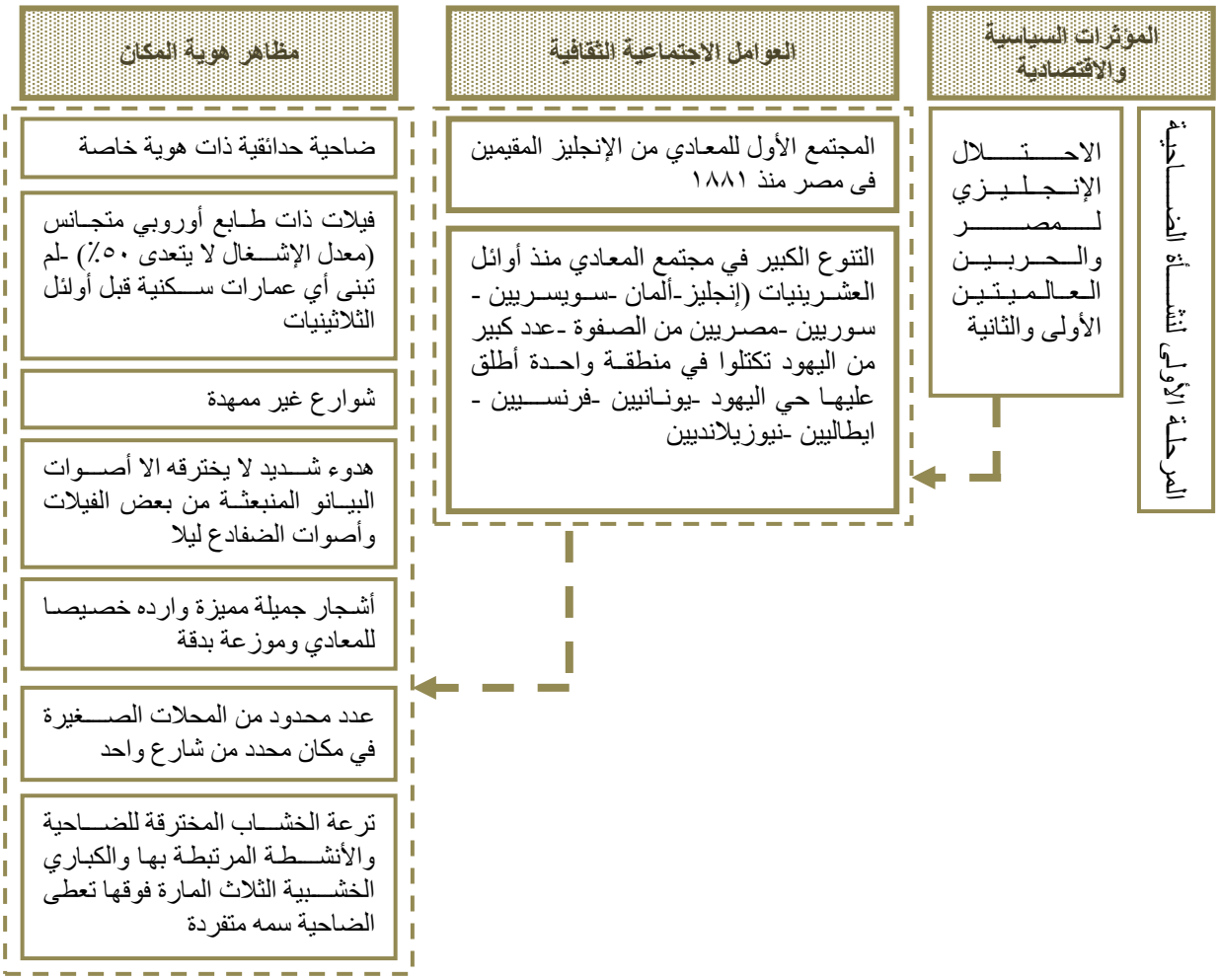

شكل (١٨-ب) مظاهر التحول في هوية المعادي وارتباطها بالعوامل الاجتماعية الثقافية-منذ وائل الخمسينيات حتى الآن

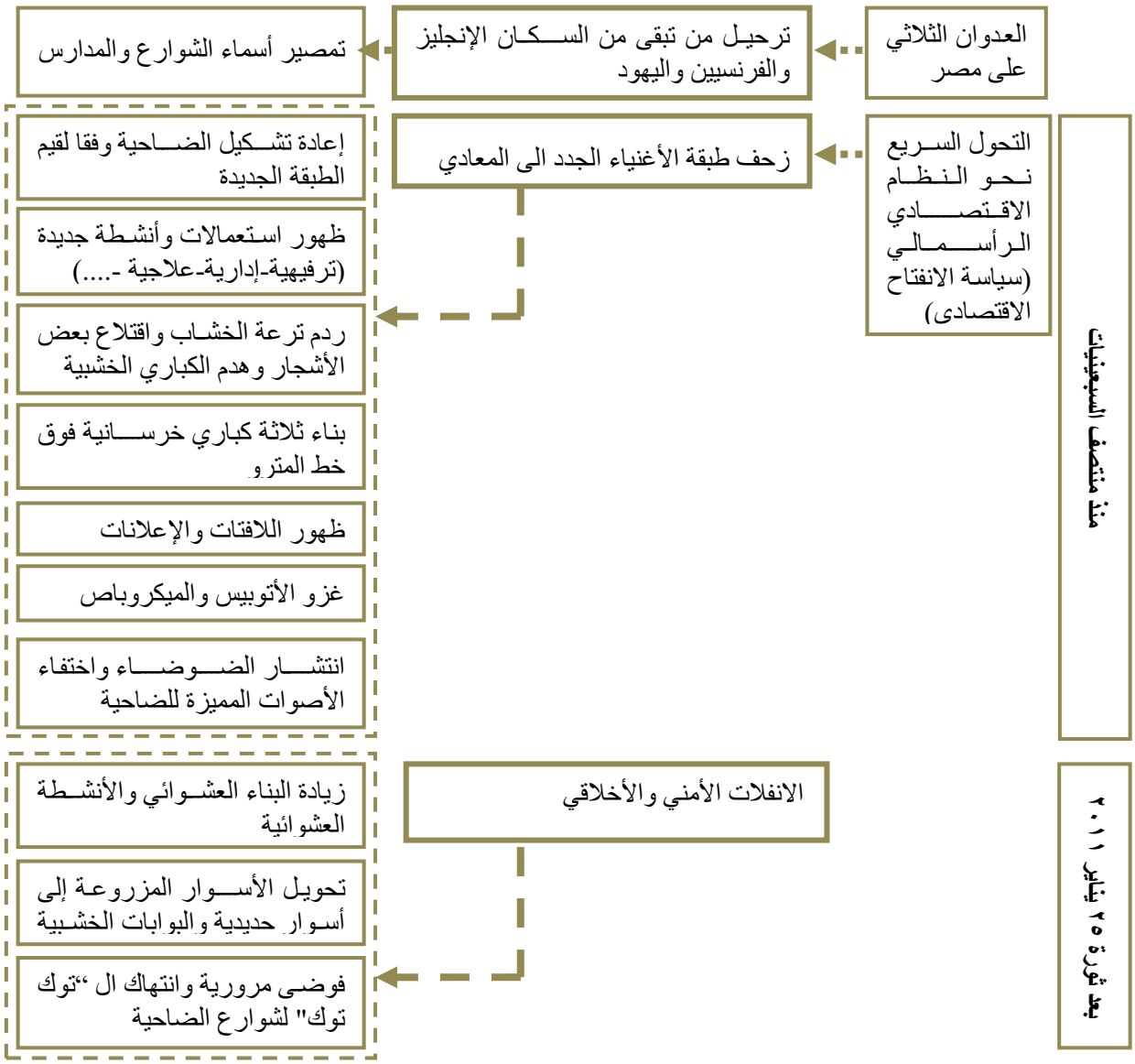

٢/٢ نظم الإدارة والتحكم وتأثيرها على هوية المعادي

تكون مجلس إدارة شركة الدلتا للأراضي والاستثمارات التي أنشأت ضاحية المعادي من نخبة من رجال الأعمال الإنجليز الذين استمروا في إدارتها لما يزيد عن أربعين سنة. وهكذا كان المعماري الأول للمعادي يوناني الجنسية أتم دراسته في إنجلترا (Ariston St. John)، ومن ثم جاء تخطيطها على أسس إنجليزية. وكان للمعادي عند نشأتها كراسة اشتراطات بنائية حددت الارتفاع الأقصى، ونسبة الإشغال، وألوان الحوائط الخارجية والبوابات والشبابيك، وارتفاع وأسس تصميم الأسوار، والارتدادات. وكان هناك تحكم كامل لضمان الالتزام بهذه الاشتراطات، كما كان اعتماد التصميمات من شركة الدلتا شرط أساسي للبدء في التنفيذ. وبالإضافة إلى ذلك، كان هناك تحديد لأنواع الأشجار وتوزيعها (Raafat,1995).

وهكذا فقد كان إحلال شركة الدلتا بهيئة تابعة للقطاع العام " شركة المعادي للتنمية والتعمير" سنة ١٩٦٢، وبدء مرحلة بناء النماذج السكنية المتكررة التي تتعارض مع الطابع المميز لمباني الضاحية في أماكن متميزة مثل منطقة دجلة، وتمليكها بشروط ميسرة، من العوامل التي ساهمت في التحول التدريجي الملموس في الهوية. كما ساهم في ذلك الامتداد الكبير شرقا في المعادي الجديدة ثم في زهراء المعادي، وما نتج عنه من تضاعف مساحة الضاحية وضياع أحد الأبعاد الأساسية لهويتها وهو الحجم المحدود (شكل ١٩). وكذلك تطبيق سياسة الانفتاح الاقتصادي في منتصف السبعينيات، وما ارتبط بها من ارتفاع شديد في أسعار الأراضي (من ٩ جنيه للمتر المربع سنة ١٩٧٣ إلى ما يقرب من ١٠٠٠٠ جنيه للمتر المربع سنة ٢٠٠٧)، والذي أدى إلى عدم الالتزام

بالاشتراطات البنائية الخاصة بالارتفاع والارتدادات. وقد ساعد على ذلك التراخي في التحكم في العمران وانتشار الفساد والرشوة.

شكل (١٩) تضخم مساحة المعادي (١٩٠٥-٢٠١٤)

وعلى الرغم من كل ذلك، شهدت السنوات الأخيرة عوامل قد تساهم في الحفاظ على بعض أبعاد الهوية التي لا تزال باقية، وعلى استعادة البعض الآخر. ومنها تكوين عدد من الجمعيات الأهلية التي تسعى لاستعادة الطابع الأخضر والتراث الطبيعي للضاحية، مثل جمعية محبي الأشجار وجمعية المعادي الخضراء للتنمية التي أشهرت سنة ٢٠١٢. ومنها كذلك قيام الجهاز القومي للتنسيق الحضاري (وزارة الثقافة) بوضع اشتراطات تفصيلية جديدة للمناطق ذات القيمة بالضاحية، والتي تم تصنيفها إلى ثلاثة مستويات للحماية بناءا على تسجيل المباني ذات القيمة التراثية (طبقا للقانون رقم ١٤٤ لسنة ٢٠٠٦)، كما هو موضح في شكل ٢٠. وقد تم اعتمادها من المجلس الأعلى للتخطيط سنة ٢٠١١، وروعي فيها الاشتراطات الأصلية للمعادي خاصة في منطقة الحماية القصوى (" أ " - معادى السرايات) حيث لا يزيد أقصى ارتفاع مسموح به عن ١٢ متر، ونسبة البناء عن ٥٠٪ على ألا تقل الحديقة عن ٣٠٪ من مساحة الأرض الكلية. كما يحظر فيها وفى منطقة "ب "أي استعمالات حرفية أو تجارية إلا في شوارع تجارية محددة. ويحظر كذلك قطع الأشجار المعمرة والمتميزة والنادرة في الشوارع والحدائق العامة والخاصة، وكذلك التقليم الجائر وتغيير نوع الأشجار عند إحلالها. وقد شملت الاشتراطات الخاصة بالنسيج العمراني تقسيم البلوكات والمسطحات الخضراء الخاصة والعامة والفراغات البينية. وبالنسبة للطابع المعماري، شملت مواد النهو وتشطيب الواجهات، والتركيبات الفنية، وتصميم وارتفاعات الأسوار والفتحات. كما حددت الاشتراطات أسس تصميم واجهات المحلات واللافتات والإعلانات. ولكن على الرغم من أهمية هذه الاشتراطات، والدور الفعال الذي يمكن أن تقوم به، إلا أن ضعف الرقابة والتحكم في السنوات الأخيرة، والتي تلت اعتمادها لم تساعد على تفعيلها.

شكل (٢٠) حدود المناطقة ذات القيمة ونطاقات الحماية

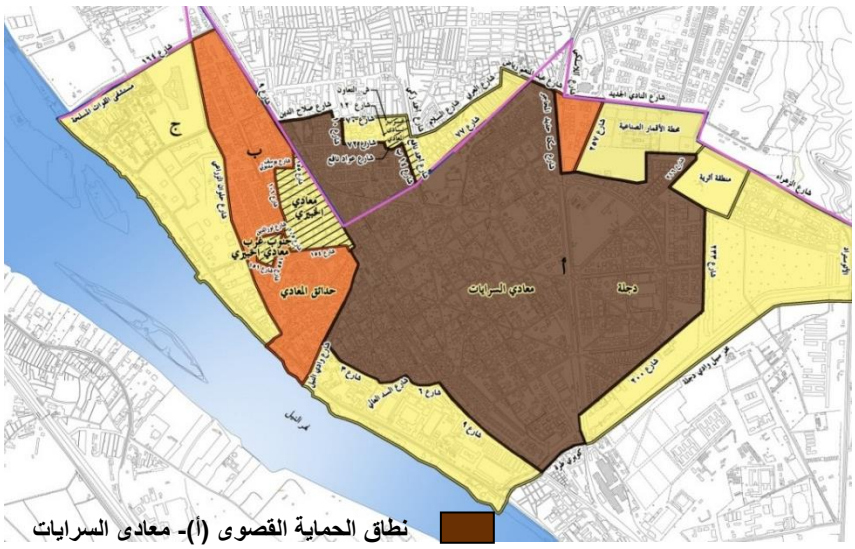

المصدر: الجهاز القومي للتنسيق الحضاري (٢٠١١)

ويوضح شكل (٢١) مظاهر التحول في هوية المكان بالمعادي، وارتباطها بالعوامل الحاكمة الخاصة بالإدارة والتحكم، والتي تأتى بدورها كانعكاس للتغيرات السياسية والاقتصادية التي شهدتها مصر منذ نشأة الضاحية حتى الآن.

شكل (٢١- أ) مظاهر التحول في هوية المعادي وارتباطها بعوامل الإدارة والتحكم - المرحلة الأولى لنشأة الضاحية

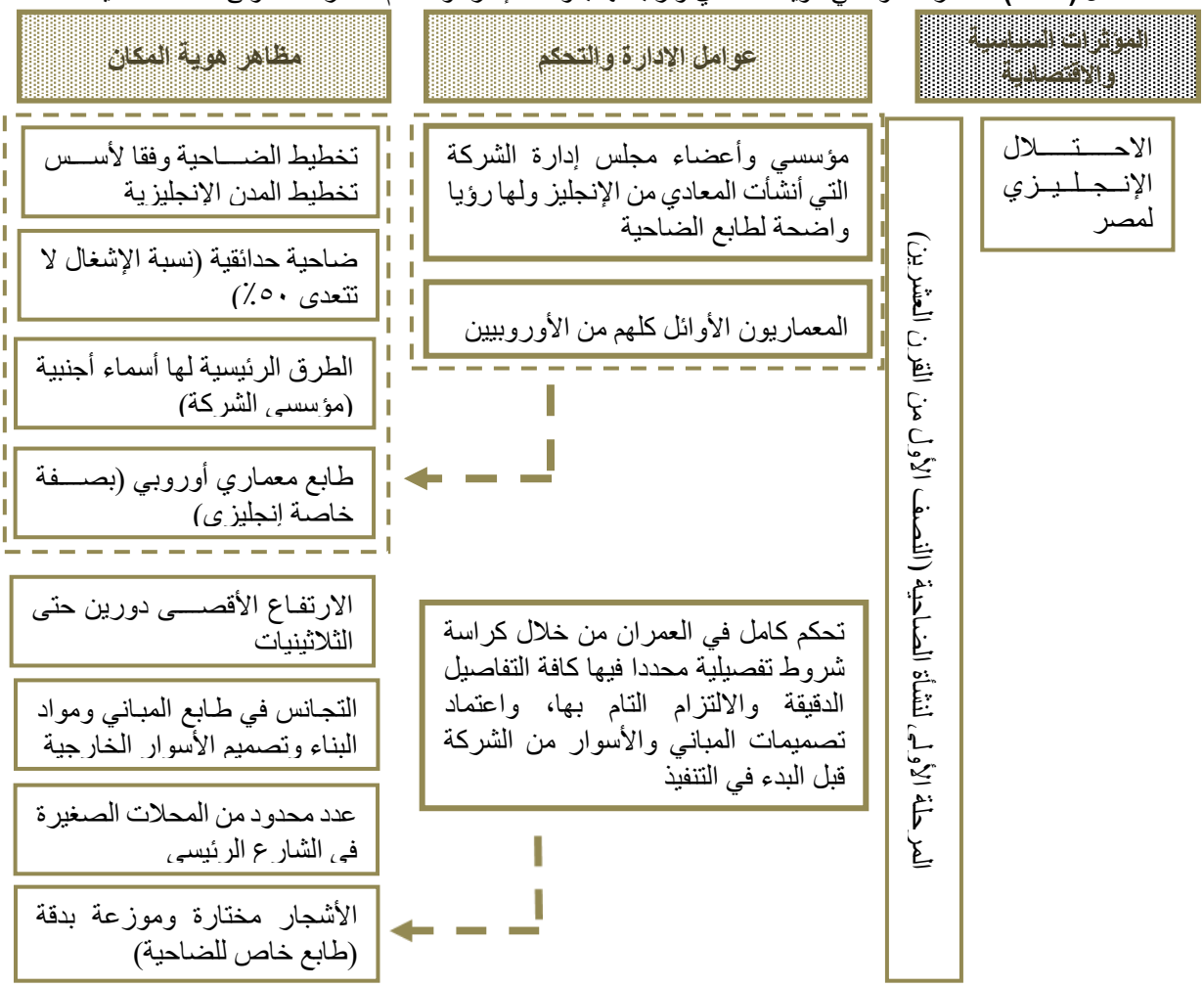

شكل (٢١-ب) مظاهر التحول في هوية المعادي وارتباطها بعوامل الإدارة والتحكم -منذ أوائل الخمسينيات حتى الآن

٤ ملاحظات ختامية

بدراسة أبعاد هوية ضاحية المعادي والتحولات التي شهدتها، وتحليل الارتباط بينها وبين التغيرات الاجتماعية الثقافية والإدارية الواسعة التي شهدتها الضاحية منذ نشأتها حتى الآن، اتضح أن الهوية الأولى المتفردة للضاحية صاغها روح المكان المكتسبة ليس فقط من النسيج العمراني والطابع المعماري المتميز، بل أيضا من العناصر الطبيعية، حيث كانت ترعة الخشاب المخترقة للضاحية بأشجارها المميزة والكباري الخشبية المارة فوقها، والأرصفة والميادين المزروعة بالزهور من أهم أركان هذه الهوية. كما شارك في صياغتها حجم الضاحية الصغير، واقتصار الأنشطة على الاستعمال السكنى وبعض الاستعمالات التجارية المحدودة والمحصورة في شارع واحد. وكذلك التركيب الاجتماعي المميز الذي اتسم بالألفة الشديدة بين السكان المتقاربين في المستوى الثقافي والاجتماعي، والبساطة في أسلوب المعيشة. فقد كان استخدام الدراجات مثلا أحد السمات الأساسية المميزة

للضاحية، وكذلك كان الهدوء الذي لا تخترقه إلا أصوات البيانو والحيوانات الأليفة الصادرة من الفيلات، وأصوات الضفادع الصادرة من الحدائق ليلا.

شكل (٢٢) بقايا شجرة فى أحد شوارع معادى السرايات

ومن ثم جاءت معظم التحولات التي شهدتها الضاحية كانعكاس مباشر للتغير في التركيب الاجتماعي الناتج عن الأحداث السياسية والاقتصادية الهامة التي مرت بها مصر خلال تلك المرحلة، والتي انعكست على الخصائص الاجتماعية للمجتمع المصري ككل، وفى المعادي بصفة خاصة. كما كان التغير في الشركة المسئولة عن إدارة العمران واسلوب ومدى التحكم في التنمية، وتزامن هذا مع زيادة في أسعار الأراضي وتفشى الفساد الإداري، والانفلات الأمني والأخلاقي، وضعف الرقابة والتحكم خلال السنوات الأخيرة، انعكاس بالغ على اندثار بعض أبعاد الهوية الأصلية للضاحية.

وتعد بقايا الشجرة الموضحة في شكل ٢٢، وهي في أحد شوارع معادى السرايات، أكثر مناطق المعادي حفاظا على أبعاد هويتها، أكبر تعبير عما حدث لهوية الضاحية.

والبحث يخلص إلى أن الهوية المميزة للمعادي ارتبطت بصفة أساسية بتخطيطها الحدائقى ذو نسبة الإشغال المنخفضة والحدائق المتميزة، وكذلك بوجود اشتراطات بنائية تفصيلية والتحكم الكامل في تطبيقها. هذا بالإضافة إلى حرص السكان على الالتزام بها لانتمائهم العميق للضاحية ورغبتهم في الحفاظ على هويتها. لذلك فإنه حتى يتم الحفاظ على ما تبقى من أبعاد الهوية الأصلية للضاحية واستعادة ما يمكن منها خاصة ما يرتبط منها بالمسطحات الخضراء والأشجار، ونوعيات الأنشطة والاستعمالات، والحركة، يوصى البحث بدعم أنشطة الجمعيات الأهلية المعنية بالتراث العمراني والطبيعي بالمعادي، وكذلك بتفعيل الاشتراطات الصادرة عن الجهاز القومي للتنسيق الحضاري والمعتمدة من المجلس الأعلى للتخطيط (الجهاز القومي للتنسيق الحضاري، ٢٠١١)، والتحكم الكامل لضمان الالتزام بها.

المراجع

References

Agnew, J., Mercer, J. & Sopher, D. eds. (1984). The city in cultural context. Allen and Unwin, U.S.A

Alpay, B. (2006). Concept of "Identity" in designing the Future – Case of historical Peninsula in Estanbul. 42nd ISoCaRP Congress. http://www.isocarp. net/data/ case_studies/819.pdf

Bentley, I. (1999). Urban transformation- Power, people and urban design. Routledge, London and New York

Brebbia, C., Hernandez, S. & Tiezzi, E. eds. (2010). The sustainable city VI: Urban regeneration and sustainability. WIT press

Browne, S. (1994). Remembering Maadi. *Egypt Today Magazine*. January. www.egy.com/**maadi**/review.php

Dovey, K., Woodcock, I. & Wood, S. (nd). Contradictory characters: Place -identity & the post - suburban city. www.placeresearch.net/publications

Kaymaz, I. (2013). Urban Landscapes and Identity.in Murat Ozyavuz, Advances in landscape architecture. Chapter 2. Environmental sciences. www.intechopen.com/ books/... landscape.../urban-landscapes-and-identit.

Nylund, K. (2000). Place and cultural identity in the segregated city. *The Finnish Journal of Urban Studies*, vol. 38: 3, pp. 8 -27

Oktay, D. (2006). How can urban context maintain urban identity and sustainability? Evaluations of Taormina (Sicily) and kyrenia (North Cyprus). http://www.webjournal.unior.it-(11)

Proshansky, H. (1978). The city and self-identity. *Environment and behavior*. eab.sagepub.com/

Raafat, S. (1995). Maadi 1904 – 1962 - Society and history in a Cairo suburb. *The palm press.* Cairo

Remembering Maadi (pictures) - Egy.com. www.egy.com/maadi/pictures1.php - www.egy.com/ maadi/pictures2.php - www.egy.com/maadi/pictures3.php

Tomlinson, J. (2003). Globalization and cultural identity. http://www.polity. co.uk/global/ pdf/GTReader2etomlinson

الجهاز القومى للتنسيق الحضارى (٢٠١١). حدود وإشتراطات منطقة المعادى المعتمدة من المجلس الأعلى للتخطيط والتنمية العمرانية. وزارة الثقافة. مصر

Transformation in place identity of Maadi suburb: Controlling factors

Abstract

Place identity is multidimensional facet stemming from a place's values, history, and identifiable attributes comprising not only built-up and natural visual features, but also residents' characteristics, living patterns and actions, and the essence these create. It hence changes with time, as an outcome of local socio-economic, administrative and legislative changes which are, in turn, a reflection of political, economic and socio-cultural changes experienced by the society as a whole. This paper studies place identity in Maadi, a suburb that had an initial distinctive identity which witnessed vast changes especially during the last four decades of the twentieth century, and the current century, in an attempt to outline an approach to preserve its continuing aspects, and restore other possible declining dimensions. This is fulfilled through analyzing these changes and their controlling factors since the suburb's initiation till now. This period is classified into three main stages according to the predominant political and economic incidents in Egypt; the first extends from the initiation of the suburb in1905 till the 23 July 1952 revolution and the end of the British occupation, followed by a stage of applying socialist economic policies during the fifties and sixties, and finally a stage of capitalist economy and adoption of an open-door policy since the early seventies. In addition, a fourth phase followed the 25th of January 2011 revolution, renowned by weak surveillance and control. Controlling factors are classified into socio-economic aspects, and management and control systems.

Key words:

place identity – distinctive residential areas- sense of belonging

الكلمات الدالة:

هوية المكان-الأحياء السكنية المميزة- الانتماء للمكان